موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب بباوي

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة السادسة

www.coptology.com

Coptology

محاضرات في تجسد الكلمة

للقديس أثناسيوس الرسولي

المحاضرة السادسة

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٠

الخطية والموت والصليب

مَن يدرس كتاب تجسد الكلمة بدقة وعناية، سوف يُلاحظ على الفور أن الموضوع الأساسي ليس خطية آدم، بل الموت. والموت هو ثمرة "التعدِّي"، فيقول أثناسيوس:

"أمَّا إذا تعدّوا الوصية، وارتدوا، وصاروا أشراراً، فليعلموا أنهم سيجلبون الموت على أنفسهم حسب طبيعتهم (القابلة للموت لأنها خلقت من العدم)".

(تجسد الكلمة ٣: ٤).

والتعدِّي هو الحياة والبقاء بدون الصورة الإلهية، وهي تلك العطية العظمى التي أُعطيت للإنسان، وهي نعمة الشركة في قوة اللوغوس الابن الوحيد (٣: ٣). فالتعدِّي هنا ليس موضوعاً أخلاقياً كما هو شائع عندنا الآن، وإنما **التعدِّي هو اختيار الإنسان لأنْ يكون صورةً لذاته بالابتعاد عن الصورة الإلهية التي خُلِقَ عليها**، وهذا ليس مجرد إستنتاج، بل هو ما يؤكده القديس أثناسيوس نفسه:

"إذا حفظوا النعمة واستمروا صالحين، عاشوا في الفردوس ...
أمَّا إذا تعدّوا الوصية وارتدُّوا[1] وصاروا أشراراً،
فليعلموا أنهم سيجلبون الموت على أنفسهم".

(تجسد الكلمة ٣: ٤).

"خلق اللهُ الإنسانَ، وكان قصده أن يبقى في غير فساد.
أمَّا البشر، فإذ احتقروا التفكير في الله ورفضوه وفكَّروا في الشر وابتدعوه ..".

(تجسد الكلمة ٤: ٤).

---

(١) في ترجمة جامعة أوكسفورد أُضيف الارتداد إلى الناموس، فأصبح المعنى: "ارتدوا عن الناموس". وفي ترجمة د. جوزيف فلتس أضاف الارتداد إلى الخير، فأصبح المعنى: "ارتدوا (عن الخير)"، ولكن يتضح لنا من خلال سياق الشرح نفسه الذي يبدأ بالنعمة، أي الصورة الإلهية، أن الارتداد هو ترك الصورة، وهو ما يعني ترك الحياة حسب الله.

"دُعُوا (أي البشر) إلى الوجود بقوة الكلمة ومحبته، كان حتمياً أن يرجعوا إلى ما هو غير موجود (أي العدم)".

(تجسد الكلمة ٤: ٥).

"الله لم يكتفِ بأن يخلقنا من العدم،
ولكنه وهبنا أيضاً بنعمة الكلمة (إمكانية) أن نعيش حسب الله،
ولكن البشر حوَّلوا وجوههم عن الأمور الأبدية ...
وصاروا هم أنفسهم السبب فيما حدث لهم من فساد بالموت".

(تجسد الكلمة ٥: ١ – ٢، راجع أيضاً ٦: ١).

إذن، التحول = الارتداد = التحول عن النعمة = الارتداد عن الصورة = فقدان الشركة.

الخطية هنا ليست مجرد عصيان كما هو شائع الآن، بل **هي تعدِّي حدود الطبيعة، وهي فقدان الشركة، وهي تخلي عن قوة الكلمة الذي يعطي للإنسان نعمة الإدراك.**

الخطية هي الشر، ولذلك، المرادف لكلمة خطية ليس فقط التعدي، بل الشر – وهي كلمة قديمة جداً تعود إلى الإصحاح الثالث من سفر التكوين الذي يتكلم عن "شجرة معرفة الخير والشر"، وليست "شجرة الخطية" – **والشر** كما هو معروف لنا **هو طلب معرفة الخير والشر بدون شركة مع الله.** ولأن الله لا يعرف الشر، بل الخير وحده، كان سقوط الإنسان هو عودة الإنسان إلى الحياة أو الأصل أو الوجود الذي جاء منه، وهو – كما يسميه القديس أثناسيوس – العدم والفناء، وهو ما يعني ألاَّ يصبح الإنسانُ إنساناً كصورة الله، بل تفنى فيه القوى الروحية والعاقلة.

الشَّرُ عدم:

عقيدة الكنيسة الجامعة هي أن الخلق من العدم يجعل كل ما خلقه الله بواسطة الابن الكلمة حياً وكائناً بالقوة التي تُوهَب من الله، وهي قوة الله الكلمة الذي يحفظ كل الكائنات؛ لتبقى في الوجود: "حامل (حافظ) كل الأشياء بكلمة قدرته" (عب ١: ٣).

والبقاء هو بقاءٌ دائمٌ؛ طالما ظلت الخليقة في الشركة، ولكن "الإرتداد" عن الشركة يُعيد الإنسان إلى ما أطلق عليه القديس أثناسيوس "**الفساد الطبيعي**". والفساد المقصود هنا ليس هو الفساد الأخلاقي بحسب ما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما هو "**تحلل**" الكيان وعودته إلى ما كان عليه قبل أن يوجد.

الفساد هو تلك "الحالة الطبيعية" (٤: ٤). هو حالة عدم الوجود كإنسان (٤: ٥). هو عودة إلى العدم؛ لأن الإنسان فَقَدَ معرفته بالله (٤: ٥)، والمعرفة هنا هي إحدى مكونات الشركة؛ لأن الإنسان نال قوة الكلمة الابن الذي خُلِقَ الإنسانُ على مثاله (٥: ١).

إذن المأساة ليست هي **الخطية** بالمعنى السائد الآن، بل **الشَّر**، أي التحول إلى حياة غير تلك التي خلقها الله، حياة لا شركة فيها مع الله.

الموت:

يجب أن ننبه إلى حقيقة هامة في تعليمنا الشرقي أبرزها الأب مايندورف في مقال قصير[١] نادر وسط بحر المقالات التي تُكتب دون عناية أو اهتمام بدراسة النصوص الآبائية. هذه الحقيقة هي أن المشكلة الحقيقية ليست الخطية كتَعَدٍ على الله أو إهانة الله، المشكلة الأساسية هي الموت، أي التحول الكياني الذي أصاب الإنسانية في آدم. ووراثة الموت هي التعليم الشرقي الأصيل الذي لم يختلط بتعليم مدارس لاهوت العصر الوسيط التي تبدأ بأنسلم وتصل إلى الذروة في حركة التجديد الإنجيلي في القرن الثامن عشر. وهي تلك المدارس التي اخترعت صِدام العدل والرحمة – وإهانة الله – والاعتداء على الله ... الخ. كل هذه التصورات قاصرة تماماً عن استيعاب الموضوع الأصلي، وهو فساد الموت، وهو الموضوع الذي يشغل الفصول والمواضع التالية في كتاب تجسد الكلمة:

(٣: ٤ – ٥ / ٤: ٤ / ٥: ١ – ٣ / ٦: ١ – ٢ / ٧ / ٨: ٢ – ٤ / ٣٠: ٢).

الموت ليس مجرد انفصال النفس عن الجسد. هذه هي نتيجة الموت، أو "محصلة الموت"، ولكن الموت له مكونات أخرى روحية وعقلية:

* فقدان الشركة بالارتداد عن الوصية، أي السعي إلى حياة غير تلك التي يريدها الله (٣: ٤). ولذلك لم يكن الموت هو مجرد هدم الكيان الإنساني بانفصال النفس عن الجسد، بل "البقاء في فساد الموت إلى الأبد" (٣: ٥)، أي انعدام القوى الروحية للإنسان (٦: ١).
* لم يبقَ الإنسان كما خُلِق (٤: ٤)، بل قادته أفكاره إلى الفساد وملك عليه الموت (٤: ٤).
* الموت هو فقدان المعرفة، أي فقدان الشركة (٤: ٥).
* الموت هو تحول الإنسان عن الأمور الأبدية (٥: ١).
* هو فقدان **سكنى الكلمة** الابن الوحيد فينا، لأن "الكلمة سكن فيهم، فإن فسادهم الطبيعي

---

(١) أنظر

John Meyedorff, Byzantiane Theology chapter 11, pages 143 – 146.

لم يمسهم" (٥: ٢).

* الموت هو تغيير في طبيعة الإنسان، ولذلك لم تكن التوبة كافية أو قادرة على أن تغيِّر طبيعة الإنسان (٧: ١).

* وأخيراً الموت هو فقدان نعمة مماثلة الصورة، أي أن الإنسان لم يعد حياً حسب صورة الله الابن الكلمة؛ لأنه بعد أن حدث التعدي "تورط البشر في ذلك الفساد... ونُزعت عنهم نعمة مماثلة صورة الله (٧: ٤).

هذه هي ملامح السقوط عند الآباء، وهي بدورها تختلف عن لاهوت العصر الوسيط، وبكل أسف عن بعض ما يدور الآن في أحاديث وعظات ومقالات قبطية أرثوذكسية.

وهنا يلزمنا أن نضع أمام القارئ العزيز الكلمات اليونانية الآتية:

"خُلِقَ الإنسان من العدم οὐκ ὀν

ولذلك الطبيعة الإنسانية هي η κατά φύσιν φθορα

(تجسد الكلمة فصول ٣، ٤، ٥، ٧، ١٠، ٢١، ٢٨).

فالطبيعة الإنسانية غير كاملة ατελές (ضد الأريوسيين ١: ١٤)؛ لأن الذي يكمِّل الوجود الإنساني هو الله.

موت ربنا يسوع المسيح الكلمة على الصليب:

يجب أن نطهِّر فكرنا من تعليم العصر الوسيط برمته حتى نستطيع أن نستوعب التعليم الآبائي النقي الصحيح، ونميِّزه من نفايات لاهوت العصر الوسيط: موت المسيح العقابي – خطية الإنسان غير المحدودة – ... الخ ويضاف إلى ذلك سوء دراسة ذبائح العهد القديم، وإخضاع العهد الجديد كله للعهد القديم، أي إخضاع الظلال للنور، وإخضاع العتيق أو القديم للجديد.

وحجة هؤلاء الذين لم يتجاوزا بعد سن المراهقة في المعرفة، هي أن الرب يسوع قال: "ما جئت لأنقض بل لأكمل" (متى ٥: ١٧). ولو وضع هؤلاء عبارة الرب كاملة، ما وقعوا في هذا الخطأ الشنيع فقد قال: "لا تظنوا إني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض (الناموس والأنبياء) بل لأكمل".

وعبارة "ينقض الناموس" تعني أن يعلِّم تعليماً آخر ضد الوصايا العشر، فيقول أُقتل ... الخ. و"ينقض الأنبياء" تعني أن يلغي تماماً النبوات الخاصة به، أو أن يعلم تعليماً ضد التعليم النبوي: "أريد رحمةً لا ذبيحة". وحتى لا يظن أحد أن هذا تفسيراً من عندي، أرجو مراجعة العظة ١٦ على إنجيل متى ٥: ١٧ للقديس يوحنا ذهبي الفم الذي يذكر ثلاثة معاني لكلمات الرب يسوع مؤكداً أنه لم يكسر

الناموس، بل تحدَّى اليهود قائلاً: "من منكم يبكتني على خطية"؛ لأن النبي تنبأ عنه بأنه لم يفعل خطية (أش ٥٣: ٩). وأكمل الناموس عندما أسس الخلاص، وأضاف إلى الوصايا العشر الوصية التي تعطي لهذه الوصايا مصداقيتها، عندما أضاف الغضب إلى وصية القتل. ولأنه لم يحفظ السبت حسب عادة اليهود، بل فعل الإحسان والبر، وأقام الموتى، وغفر الخطايا، وشفى المرضى، وطرد الشياطين ... كل هذه الأعمال الإلهية جعلته يقول لليهود إنني لم آتِ لكي أنقض الناموس والأنبياء.

ذبائح العهد القديم كما شرحها القديس أثناسيوس:

في شرحه لكلمات (عب ١: ٤) لا يضع المعلم العظيم ذبائح العهد القديم كمساوية لذبيحة الرب، بل يقول:

> **"لكن يسوع الآن قد حصل على خدمة أفضل (عب ٨: ٦) لأن الناموس لم يُكمِّل شيئاً، ولكن يصير مجيء رجاء أفضل (عب ٧: ١٩).... إذن الآن تؤكد كلمة أفضل أن الرب نفسه هو أفضل من سائر المخلوقات ويعلو عليها ذلك لأن ذبيحته أفضل، والرجاء فيه أفضل، والوعود المعطاة بواسطته لا تقارن – كما نقارن العظيم بالصغير – بل لأن هذه الوعود مختلفة بحسب طبيعتها؛ لأن مدبِّر هذه الوعود هو أفضل من الخليقة".**
>
> (ضد الأريوسيين ١: ٥٩)[١].

ما أعظم خطية الذين وضعوا الرب نفسه وذبيحة محبته تحت الناموس مع أنه حسب كلمات القديس أثناسيوس:

> **"قدَّم ذبيحةً أمينةً أبديةً لا تزول.**
> **لأن الذبائح المقدمة حسب الشريعة ليست أمينة،**
> **إذ أنها تقدَّم كل يوم. وهي أيضاً تحتاج إلى تطهير (مَن يقدمها).**
> **أمَّا ذبيحة المخلص، فقد كانت مرةً واحدةً وأكملت الكل،**
> **وظلت أمينةً (وفية) لأنها باقية إلى الأبد".**
>
> (ضد الأريوسيين ٢: ٩)[٢].

---

(١) أنظر المقالة الأولى ضد الأريوسيين – سلسلة نصوص آبائية رقم ٦٤ – مؤسسة القديس أنطونيوس – المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية – الطبعة الثالثة ٢٠٠٢ – ص ١٣٥ – ١٣٦.

(٢) أنظر المقالة الثانية ضد الأريوسيين – سلسلة نصوص آبائية رقم ٧٧ – مؤسسة القديس أنطونيوس – المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية – الطبعة الثالثة ٢٠٠٤ – ص ٢٥.

وكلمة ذبيحة أمينة هي: πιστην θυσιαν - trust-worthy .
وكلمة باقية: μενουσαν أي لها صفة الدوام.

وفي رسائل عيد القيامة – الرسالة الأولى، وغيرها من رسائل عيد القيامة – يؤكد أثناسيوس على أن العبادة القديمة قد انتهت والرموز زالت؛ لأن مذبح العهد القديم انكسر، وحجاب الهيكل انشق[١].

موت الرب يسوع على الصليب:

جسد الرب هو هيكل ναός سكن أو حلَّ فيه الكلمة، فصار بذلك أداة όργανον وفيه قدَّم الرب الذبيحة θυσία (تجسد الكلمة ٨: ٣ – ١٠: ٤ – ١٦: ٤ – ٢٠: ٢ – ٢١: ٦). قدَّم الرب جسده عن الجميع αντί πάντων ولأجل الجميع ύπερ πάντων وقد سبق لنا أن أوضحنا أن قضية حرفي الجر "عن" و"لأجل"، هي قضية أثارها تعليم العصر الوسيط، وعالجناها بالتفصيل في كتابنا "موت المسيح على الصليب"[٢].

أولاً: تعبير "عن الجميع" (تجسد الكلمة ٨: ٤ – ٩: ١ – ٢٠: ٢).

إذا دققنا النظر في الفصل الثامن ودرسنا النص بعناية، فإننا نجد أن الرب قدَّم جسده "عن الجميع"، وعلى وجه التحديد يقول أثناسيوس:

"وإذ كان الجميع خاضعين للموت والفساد،
فقد بذل جسده للموت عن الجميع
وقدَّمه للآب.
كل هذا فعله من أجل محبته للبشر ..."
(تجسد الكلمة ٨: ٤).

لعلنا نلاحظ أنه لا يوجد مكان لـ "البديل العقابي" بالمرة. وهنا يمكن أن نحصر "**عن**" في "**محبته للبشر**"؛ لأن المحبة هي التي جعلت الكلمة يقدِّم ذاته عنّا.

---

(١) راجع دراستنا عن موت المسيح على الصليب حسب تسليم الآباء ص ٢٤٤ – ٢٤٥، منشورة على موقع: www.coptology.com
(٢) المرجع السابق ص ٣٤٦ وما بعدها.

وهكذا الأمر أيضاً في الفصل التاسع:

"لم يكن ممكناً أن يُباد، أو يُقضى على فساد البشرية
بأي طريقة أخرى سوى الموت عن الجميع.
ومن غير الممكن أن يموت الكلمة؛ لأنه غير مائت ...
اتخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت،
حتى أنه عندما يتّحد هذا الجسد بالكلمة
الذي هو فوق الجميع؛
يصبح جديراً، ليس فقط أن يموت عن الجميع،
بل ويبقى في عدم فساد بسبب اتحاده بالكلمة"

(تجسد الكلمة ٩: ١).

ما هو مضمون "**عن**"؟

القضاء على فساد البشرية بالموت الذي يجب أن يتم في جسد الكلمة غير المائت، لكن موت جسد الرب هو موت جسد متّحد بلاهوت الكلمة، ولذلك مات وظل في عدم فساد.

لقد تم تحول الجسد إلى عدم فساد بسبب اتحاده بالكلمة.

وحتى عندما نتكلم عن "وفاء الدين"، وهو تبديد الصورة، فإن "عن" في الفصل (٢٠: ٢) نؤكد ما سبق وأن أكَّده القديس أثناسيوس في كل مؤلفاته، وهو تحول الكيان الإنساني إلى عدم فساد بسبب اتحاده بالكلمة وبالقيامة.

ثانياً: تعبير "لأجل الجميع" (تجسد الكلمة ٢٥: ٦ – ٣١: ٤):

في فصل ٢٥ يقول المعلم الكبير عن دخول الرب إلى السماء، أنه كان لأجلنا:

"نحن الذين كنّا في حاجة إلى ذلك.
نحن الذين حَمَلَنا في جسده الخاص.
لأنه كما قدَّم جسده للموت لأجل الجميع،
هكذا بنفس هذا الجسد أيضاً أعدَّ الطريق للصعود إلى السموات"

(تجسد الكلمة ٢٥: ٦).

"لأجلنا" أو "لأجل الجميع"، تؤكد أن الرب مات وقام وصعد؛ لأنه حمل الكل في جسده، أي أنه كان الرأس أو الباكورة. ولأن الفقرة ٤ في الفصل ٣١ خاصة بالقيامة، نجد أثناسيوس يعود ويؤكد ما سبق أن أشرنا إليه، فيقول:

"ماذا كان يمكن أن يكون مصير هذا الجسد بعد أن حلَّ فيه الكلمة؟
لأنه كان لابد أن يموت، إذ هو جسدٌ قابل للموت،
وأن يقدَّم للموت لأجل الجميع"

(تجسد الكلمة ٣١: ٤).

مات الكل فيه (تجسد الكلمة ١٠: ٢ مع ٩: ٢ – ٢٠: ٥ مع ٨: ٤).

الكل أو الجميع مات فيه "الجميع قد ماتوا فيه" (٨: ٤). وموت الجميع في الرب ينفي تماماً موت المسيح كبديل عقابي.

"إذ كان الجميع خاضعين للموت والفساد؛
فقد بذل جسده للموت عن الجميع
وقدَّمه للآب....
لكي إذ كان الجميع قد ماتوا فيه، فإنه يبطُل عن البشر ناموس الموت؛
لأن سلطان الموت قد فَقَدَ قوته أو فاعليته في جسد الرب أو استُنفِذَ في جسد الرب"

(تجسد الكلمة ٨: ٤).

في الفصل (٢٠: ٥) يؤكد أثناسيوس أنه تم عملان مختلفا الاتجاه παραδοξως، وليس عملان أو فعلان متناقضان:

الاتجاه الأول: هو أن "موت الجميع قد تمَّ في جسد الرب".

والاتجاه الثاني: هو "أن الموت والفساد قد أبيدا من الجسد بفضل اتحاد الكلمة به".

وموت الجميع هو أن يتم حكم الموت، ولكن هذا لا يكفي لتحرير الإنسانية من الفساد، بل تحوُّل جسد الرب بفضل اتحاد الكلمة به بأن يصبح الجسد عديم الفساد.

إن عبارة "**مات الكل فيه**" تؤكد "**اتحاد الجميع**" أو "**الكل**" في المسيح بسبب الطبيعة الإنسانية التي تجمع الرب بنا، فهو متّحد بنا بسبب تجسده (راجع ضد الأريوسيين ٢: ٥٥)[١].

---

(١) "إذن فالمخلص لم يأتِ لأجل ذاته، بل لأجل خلاصنا، ولكي يبطل الموت ويدين الخطية، ولكي يعيد أبصار العميان، ولكي يقيم الجميع من بين الأموات" راجع المقالة الثانية ضد الأريوسيين – المرجع السابق ص ١٠٦.

ما هو المعنى الدقيق لكلمة ἀντίψυχον ؟

تترجم هذه الكلمة إلى "فدية"، وهو المعنى الواضح من سياق الكلام:

"لأن كلمة الله هو فوق الجميع،
فقد كان لائقاً أن يقدِّم هيكله الخاص،
وأداته البشرية فديةً ἀντίψυχον عن حياة الجميع،
موفياً دين الجميع بموته.
وهكذا باتخاذه جسداً مماثلاً لجسد جميع البشر وباتحاده بهم،
فإن ابن الله عديم الفساد ألبس الجميع عدم الفساد بوعد القيامة من الأموات"

(تجسد الكلمة ٩: ٢).

ومن خلال هذا النص نلاحظ ما يلي:

١– إن الفدية لم تقدَّم للآب عن البشر، بل حرَّرت جميع البشر من الفساد. وهنا تعبير "جسداً مماثلاً لجسد جميع البشر" هو ما يجعل موت المسيح لتحرير الإنسانية من دين الموت وتبديد الصورة وفقدان النعمة، هو عمل الفدية.

٢– إن اتحاد ابن الله بجميع البشر أبطل الفساد. وهو ما شرحه أثناسيوس من خلال التشبيه في الفصل الثامن من كتاب تجسد الكلمة، وهو التشبيه الخاص بدخول ملك عظيم مدينة مما يجعل المدينة "جديرة بكل عناية واهتمام ... هكذا كان الحال مع ملك الكل" (٨: ٣).

٣– وفي الفقرة التالية بعد أن قدَّم التشبيه السابق (٨: ٣) عدَّد النتائج التي حققتها الفدية كالتالي:

أ– أبطلت كل مؤامرة العدو (الشيطان) ضد البشر.

ب– أبطلت فساد الموت.

جـ– منعت الهلاك التام عن جنس البشر (٨: ٤).

وقد وردت كلمة الفدية ἀντίψυχον في سفر المكابيين الأول ٤: ١١ ولم تستخدم في العهد الجديد، ولكن الكلمة معروفة في الأدب اليوناني الكلاسيكي، وهي تعني تقديم هبة أو عطية لكي ينال المقدِّم شيئاً في المقابل. كما تعني أيضاً دفع شيء في مقابل الإبقاء على حياة إنسان.

ولكن سياق الكلام عند القديس أثناسيوس يؤكد أن الكلمة هنا تعني تحرير الإنسانية، وذلك على الرغم من أن الأصل الكلاسيكي هو من ἀντίψυχος أي حياة بدل حياة، وهو المعنى الوارد في سفر المكابيين الأول ٤: ١١ – كما وردت في رسالة الشهيد اغناطيوس الأنطاكي (أفسس ٢١: ١) "إن نفسي عن نفوسكم"، وهو يعني تقدمة نفسه *soul* عن الكنيسة.

وقد استخدم القديس يوحنا ذهبي الفم نفس الكلمة في العظة ٦: ٤ على رسالة كولوسي، وهو

يشرح الخليقة الجديدة في المسيح:

"أخذ الله تراباً من الأرض وخلق الإنسان (تكوين ٢: ٧)،
ولكن الآن لا مكان للتراب،
وإنما الروح القدس الذي به كَوَّن (المسيح يسوع) ذاته؛
لأنه هكذا كُوِّن في رحم العذراء ...
لقد جدَّدكم ووضعكم عند عرش ملكه،
لقد خلق الإنسان الجديد من المياه؛
لكي يقبل الروح بدلاً من النفس ἀντίψυχον πνευμα **..."**

(مجلد ١١: عامود ٣٧٠).

ولذلك، وعلى رغم ما يقال عن "بدل" أو "عِوَضْ" أو "لأجل"، لا يجب أن يغيب عن الإدراك أن التحول في علاقة الإنسان بالله تم في يسوع، وهو ما يذكره ذهبي الفم نفسه في ذات العظة السابقة إذ يقول:

"لقد كان صراعاً وحرباً واحدة.
جاء الموت وجَرَحَ المسيح، ولكن المسيح المجروح قَتَلَ الموت.
والموت الذي ظهر كما لو كان أبدياً، أُبيد بجسدٍ قابلٍ للموت.
هذا أُعلن للعالم كله".

(نفس المرجع السابق).

لا يجب أن تضيع تلك الحقيقة الخالدة، وهي تجديد الإنسانية في المسيح؛ لأن هذا التجديد هو جوهر الصليب الذي فيه تَمَّت غلبة الموت. أمَّا تشتيت الانتباه من الانتصار على الموت والشيطان إلى دفع ثمن للآب، فهو – في النهاية – يخدم كل القوى السلبية التي يحشدها الشيطان لكي يحبط التقدم الروحي في محبتنا لله.

ما هو المعنى والمقصود بكلمة فدية λύτρον ؟

الكلمة λύτρον من الفعل اليوناني λύω وهو يعني يفك قيد، أو يحرر. وقد استُخدم في السبعينية ٩٠ مرة في تأكيد تحرير وفك أسر إسرائيل؛ لأن الله هو الذي يحرر.

حصراً، في الشريعة وفي المعاملات اليومية، يجب أن يدفع الذي وقع عليه ضررٌ فديةً (خروج ٢١: ٢٨ – ٣٠).

ولا توجد فدية لمن يقتل عمداً (عدد ٣٥: ٣١ – ٣٢).

وأقرب إنسان في الأسرة "يفدي" الأرض أو الممتلكات (لاويين ٢٥: ٢٥ – ٢٨، راعوث ٢: ٢٠ – ٤: ٤)[١].

ولكن الله هو الفادي الذي لا يقدِّم فديةً لأحد؛ لأنه رب الخليقة ومالكها (٢صموئيل ٤: ٩). ويستخدم الرسول بولس الفعل ذاته في (رو ٨: ٢٣) حيث يصبح فداء الجسد هو تحرير الجسد في يوم القيامة.

ودفع فدية غير جائز بالمرة بالنسبة لله، ولذلك يُعد مزمور ٤٩: ٥ – ١٥ هو أهم ما ورد عن عمل الفداء الإلهي: "الأخ لن يفدي الإنسان فداءً، ولا يعطي الله كفارة عنه، إنما الله يفدي نفسي من يد الهاوية". وبنفس الروح يتنبأ أشعياء ويقول عن الرجوع من السبي: "ومفديي الرب سيعودون ..." (٣٥: ١٠ – ٥١: ١١ مع أرميا ٣١: ١١). ولذلك، الذي يفدي من الهاوية هو الله؛ لأنه يكسر شوكة الهاوية (هوشع ١٣: ١٤ مع ١كو ١٥: ٥٥). وعندما يكتب الرسول بطرس "عالمين أنكم افتديتم لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التي تقلدتموها من الآباء، بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس دم المسيح معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم" (١ بطرس ١: ١٨ – ١٩)، فإنه يؤكد أن المسيح لم يدفع فديةً لأحد لكي يفتدي المؤمنين من سيرة باطلة سابقة، بل حررنا بدمه، وهو نفس المعنى الذي ورد في (رؤ ٥: ٩).

لقد كنا عبيداً للظلمة والخطية (رو ٦: ١٧، ٢٠ – كولوسي ١: ١٣)، ولذلك جاء المسيح وحررنا، أي فدانا.

المقصود بكلمة "فدية" في فصل ٢٥ من تجسُّد الكلمة

عندما يقول معلمنا العظيم أثناسيوس إن "موت الرب هو فديةٌ عن الجميع" (٢٥: ٣)، فإننا من محتويات كتاب تجسد الكلمة نفسه يجب أن نفهم ما هو عمل المسيح:

١– لم يكن موت الرب على الصليب موته الخاص به، بل موتنا نحن، الذي قَبِلَهُ الرب بحريته هو "وإرادته وحده"[٢]. ولذلك يقول معلمنا القديس أثناسيوس:

"انتظر الموت إلى أن يأتيه لكي يبيده"

(تجسد الكلمة ٢٥: ٢).

---

(١) راجع دراسة:

D. Daube, The NT and Rabbinic Judaism, 1956, p 268 - 284.

(٢) ورد التعبير في القداسات الأرثوذكسية. راجع على سبيل المثال ما ورد في رشومات القداس الكيرلسي: "في الليلة التي أسلم ذاته فيها ليتألم عن خطايانا. والموت الذي قبله بذاته بإرادته وحده عنا كلنا".

"قَبِلَ في الجسد ذلك الموت الذي أتاه من البشر؛
لكي يبيد ذلك الموت تماماً عندما يلتقي به في جسده"

(تجسد الكلمة ٢٥: ٣).

٢– كان الموت حسب تعبير القديس أثناسيوس نفسه "أباد الموت مـــن داخلنـــا" (١٦: ٥)، "ولكي يبيد الموت في الجسد" (٢٦: ٦). وكيف يمكن للقديس أثناسيوس أن يقول: "المسيح قد أمات الموت" (٣٠: ٢)، إذا كانت الفدية عملاً خارجياً وليست تحريراً داخلياً؟

٣– ولعل الفصل ٤١ هو القول الفصل والنهائي. وهذه هي كلمات المعلم نفسه:

"لو كان الموت خارج الجسد،
لكان من الملائم أيضاً أن تصير الحياة خارج الجسد أيضاً،
لكن ما دام الموت قد صار داخل نسيج الجسد،
وبوجوده في كيانه صار سائداً عليه،
لذلك كان من اللازم أن تصير الحياة أيضاً داخل نسيج الجسد،
حتى إذا لبس الجسد الحياة بدل الموت، فإنه يطرح عنه الفساد"

(تجسد الكلمة ٤١: ٥).

ويحدد القديس أثناسيوس حقيقة الحضور المتجسد للابن الكلمة الذي جاء وحلَّ في الجسد و لم يبقَ خارج الجسد:

"لو افترضنا أن الكلمة قد جاء خارج الجسد وليس فيه ...
كان الفساد سيظل باقياً في الجسد ...
وكما أن الموت .. لم يكن ممكناً أن يظهر إلاَّ في الجسد،
لذلك لبس الكلمة جسداً؛ لكي يلاقي الموت في الجسد ويبيده"

(تجسد الكلمة ٤١: ٥ – ٦).

٤– لذلك، وفي شجاعة الإيمان، وشجاعة من يدرك عمل الله الكلمة في الجسد، يكتب المعلم العظيم عن "الباكورة" الرب يسوع المسيح نفسه:

"من الصواب أن يُدعى أيضاً "أخانا" و"بِكرنا".
ومع أنه تأنَّس بعد أن خلقنا نحن، إلاَّ أنه صار أخونا؛ لأنه أخذ جسدنا.
ولذلك دُعي "بكرنا"؛ لأن كل البشر هلكوا بسبب معصية آدم،
لكن جسده كان هو أول ما تم تخليصه وفداؤه (تحريره)،
إذ أن هذا الجسد هو جسد الكلمة ذاته ..."

(ضد الأريوسيين ٢: ٦١).

"لقد تحرر جسد الرب من الفساد؛
لأن الفساد الذي كان في الجسد قد أُبيد"
(تجسد الكلمة ٤١: ٨).

"وقدَّس الكلمة جسده"
(تجسد الكلمة ٤٣: ٧).

"وأباد الفساد إذ قام بغير فساد"
(تجسد الكلمة ٢٩: ٦).

وبذلك حدث التحول الأبدي للإنسان في ناسوت الرب،

"فقد أقام الرب جسده في اليوم الثالث،
حاملاً عدم الفساد وعدم التألم اللذين حصلا لجسده كعلامة للظفر والانتصار على الموت"
(تجسد الكلمة ٢٦: ١).

هل دفع الرب يسوع فديةً للشيطان

بكل أسف كان العلامة أوريجينوس هو أول من كتب هذه الفكرة[١].

وحديثاً، أعاد الأب الدكتور جورج دراجاس Dragas هذا التفسير، وحاول أن ينسبه للقديس أثناسيوس في الفصل الرابع من كتابه عن القديس أثناسيوس ص ١٢٨ إذ يذكر أن "استخدام كلمة فدية، وهي كلمة لها صلة مباشرة بالذبيحة أو تقديم المسيح جسده للموت، وهي فكرة تنطوي على تقديم فدية للشيطان"[٢].

لكن ذلك غير صحيح بالمرة، إذ يؤكد القديس أثناسيوس في فصل ٢٥ من كتابه تجسد الكلمة:

"إن الرب قد جاء لكي يطرح الشيطان إلى أسفل (لوقا ١٠: ١٨)،
ويطهِّر الهواء ويُعد لنا الطريق الصاعد إلى السماء ..
وهذا يلزم أنه يتم بالموت ..

---

(١) أنظر في ذلك شرح رسالة رومية للعلامة أوريجينوس ٢: ١٣ – شرح إنجيل متى ١٦: ٨ – ورد القديس غريغوريوس على ذلك مقالة ٤٥: ٢٢. وقد ناقشنا هذا الموضوع بالتفصيل في كتابنا: القديس أثناسيوس الرسولي في مواجهة التراث الديني غير الأرثوذكسي ص ٤٢ وما بعدها. ويمكن الرجوع إلى دراسة مفصلة عن موضوع الفدية استغرقت الفصلين الثاني والثالث في الباب الثاني من كتابنا: موت المسيح على الصليب، ص ١٨٧ – ٢٥٠. وكلا الكتابين منشورين على موقع www.coptology.com

(2) George G.D. Dragas, Saint Athansuis, 2005, page 72.

إلاَّ بالموت الذي تم في الهواء أي (موت) الصليب؛
لأن الذي يموت على الصليب هو وحده الذي يموت (معلقاً) في الهواء"

(تجسد الكلمة ٢٥: ٥).

وفي فصل ٢٩ يكتب:

"من ذا الذي يرى الحيةً مدوسةً تحت الأقدام – وخصوصاً وهو يعرف توحُّشها السابق – ويشُك في أنها قد ماتت وفقدت قوتها تماماً".

(تجسد الكلمة ٢٩: ٥).

وقبل ذلك يؤكد:

"الوحيد الذي يبقى ميتاً حقاً هو الشيطان"

(تجسد الكلمة ٢٧: ٣).

فلم يكن للشيطان أي مجال في فداء الإنسان، بل دُمِّرت قوته وسبى الرب الجحيم بالصليب.